

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يونس

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (١)

هذه أول آية من سورة يونس عليه السلام، والذي جاء ذكره في هذه السورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنْتْ فَفَعَلَهَا إِيْمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وتبدأ هذه الآية بقوله تعالى: ﴿الرَّ﴾ وقد تحدثنا عن معنى هذه الحروف المقطعة، التي أتت في أوائل بعض السور عند حديثنا عن مطلع سورة البقرة، فليرجع إليها هناك من شاء.

ومعنى باقي الآية: ﴿تِلْكَ﴾ يعني هذه ﴿آيَاتُ﴾ من ﴿الْكِتَابِ﴾ أي: القرآن، ﴿الْحَكِيمِ﴾ المحكم المشتمل على الحكم، الممتنع عن الفساد، ولا تغيره الحوادث والأيام.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢)

يقول سبحانه: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ أمراً ﴿عَجَبًا﴾ يتعجب منه، وغريباً إلى هذا الحد ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ وهو محمد عليه السلام، حتى يتعجبوا منه، وينكروا عليه ذلك..؟

لقد أوحينا إليه: ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ الكفار، وخوفهم من عذاب الله ﴿وَبَشِّرِ

الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿١﴾ بالله ورسوله، وعملوا الصالحات ﴿٢﴾ ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ منزلة رفيعة، ومكانة عالية ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لإيمانهم وأعمالهم الحسنة، وهذا أمر طيب لا يتعجب منه، ولا يستحق الإنكار.

ولكن ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ جهلاً منهم وعناداً ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ واضح سحره.

لاحظوا أن السورة بدأت بالحديث عن الوحي، وستنتهي كذلك بالحديث عن الوحي، في قوله تعالى لحبيبه:

﴿وَأَتَيْنَا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصَرَّ حَتَّىٰ يَخُوكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَاكِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢﴾

في هذه الآية الكريمة يهدم ربنا عز وجل شبهة المنكرين للوحي المستبعدين له، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ أي: مربيكم ومالككم هو الله، الذي تستبعدون أن يوحى إلى رجل منكم، وهو محمد ﷺ.

هو الله ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ كأيام هذه الدنيا، أو كل يوم منها بألف سنة مما تعدون، أو غير ذلك، علم ذلك عنده وحده سبحانه.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ وهو أعظم المخلوقات جميعاً، وهو مخلوق غيبي لا يعلم حقيقته إلا الله، واستوى عليه استواء يليق بذاته سبحانه، من غير تحديد ولا تعيين.

ومن كانت السموات والأرض خلقه، وهذا العرش سلطانه، كيف تستبعدون أن يوحى إلى رجل منكم بما فيه توجيهكم وأمركم ونهيكم؟

هو الله ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ كله: أمر السموات والأرض ومن فيهن، ويقضي ويقدر على مقتضى علمه وحكمته سبحانه.

ومن كان التدبير كله له، كيف تستبعدون أن يوحى إلى رجل منكم بما فيه صالحكم ونفعكم..؟

هو الله الذي: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ﴾ يشفع لأحد عنده ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ وحده في هذه الشفاعة.

وَمَنْ كَانَتِ الشَّفَاعَةُ عَنْده لَيْسَتْ إِلَّا بِإِذْنِهِ عَلَى هَذَا النُّحُو، كَيْفَ تَسْتَبْعِدُونَ أَنْ يُوْحَىٰ إِلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ؟

﴿ذَلِكَ كُمْ﴾ الرب العظيم الموصوف بما سبق ذكره هو ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ فلا تستبعدوا أن يوحى إلى رجل منكم، وما دام الأمر كذلك، وهو بالفعل كذلك ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده ولا تشركوا معه غيره، من إنسان، أو ملك، أو صنم، أو غير ذلك. وإذا كان هو المستحق وحده للعبادة.. فكيف يكون ذلك معروفاً وثابتاً إلا بطريق الوحي إلى رجل منكم، وعليه كيف تستبعدون الوحي إذا..؟
﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفون ذلك وتنتفعون به فتؤمنون..!! هذا الإله..

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

يعني: ﴿إِلَيْهِ﴾ وحده ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة.

وبعد أن أبطل الله عز وجل شبهة المنكرين للوحي دخل بهم إلى الحديث عن اليوم الآخر الذي يعود الخلائق كلهم فيه إلى الله تعالى كما بدأهم؛ وذلك ليجازيهم على ما قدموا في دنياهم من خير أو شر.

﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ بهذه الإعادة للخلائق ﴿حَقًّا﴾ أي: وعدًا جازمًا لا يتخلف ولا يستبعد؛ حيث ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه هو الذي ﴿يَبْدَأُ﴾ الخلق ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إليه، وهذه الإعادة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في يوم القيامة ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل الذي يستحقون المعاملة به؛ لأنهم ما كانوا يميلون عن هذا العدل، ولا يحميدون في الدنيا.

﴿و﴾ أما ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولم يعدلوا في دنياهم، فـ ﴿لَهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿شَرَابٌ﴾ في جهنم ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾.

﴿يُضْمَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج: ٢٠].

ولهم كذلك ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ متعدد الأنواع، شديد الإيلام، وكل هذا لهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم، وإذا كان هذا فعله يوم القيامة بعباده، فكيف تستبعدون الوحي إذن؟

ثم يخبر ربنا - تبارك وتعالى - عما خلق من الآيات الكونية، الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه..!!

وذلك: ليزيل الشبهة في الوحي ومحمد ﷺ وينهى التعجب لدى المشركين من ذلك. ثم: يحطم بالتالي عناد الكفار في قبولهم لهذا القرآن، الذي أوحى به إلى محمد ﷺ. حيث يقول جل جلاله:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

أي: ﴿هُوَ﴾ الله الذي يوحي إلى محمد، هو ﴿الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ أي: ذات ضياء وشعاع، ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ جعل ﴿الْقَمَرَ نُورًا﴾ ذا نور.

لاحظ: الضياء أقوى من النور، والضياء من الشمس، والنور من الضياء، أي: أن نور القمر من ضياء الشمس، أي: انعكاس لضياء الشمس، وهذا ما توصل الإنسان إليه حديثاً، وهي من الإعجاز العلمي للقرآن، الذي أخبر بها قبل العصر الحديث بما يزيد على الألف عام.

﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ أي: جعل للقمر منازل، يبدو صغيراً، ثم يكبر، ثم يعود صغيراً. وذلك ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فتستفيدون بذلك في أيامكم وأعمالكم وعباداتكم.

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ الذي ذكره سبحانه ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا لحكمة وغاية ومنفعة، ولم يخلقها عبثاً، وهو سبحانه ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على قدرته وعلى حكمته، بهذا الشكل من التفصيل ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيستفدون.

ويقول سبحانه لإزالة شكهم في الوحي، وتحطيم عنادهم للقرآن كذلك:

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ (٦)

يعني: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ طولًا وقصرًا باعتبار الأزمنة، أو بدءًا ونهاية باعتبار الأمكنة، أو نورًا وظلمة باعتبار الإضاءة.. إلخ، إضافة إلى ما سبق ذكره من الآيات..!!

كما أنه في ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾ من آيات خفية أو ظاهرة، إضافة إلى ما سبق.

وثالثًا: في ما خلق الله في ﴿الْأَرْضِ﴾ من الخلائق والعجائب، وتذليلها للخلق، إضافة إلى ما سبق.

إن في كل ذلك ﴿لَآيَاتٍ﴾ دالة على قدرته، وكمال ربوبيته، ووحيه إلى رسله، يسوقها ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ الله، فيستفعون بها، وتزيدهم إيمانًا على إيمانهم.

وبعد هذا يبين الحكيم الخبير سبب استبعاد الكفار للوحي، ومن ثمَّ سبب كفرهم وعنادهم لمحمد ﷺ، وعدم أخذهم للقرآن، بقوله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (٧)

يعني: ﴿إِنَّ﴾ هؤلاء ﴿الَّذِينَ﴾ يتصفون بهذه الصفات الثلاث:

الأولى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لا يؤمنون بالبعث، لذا لا يتوقعون مجيئه.

الثانية: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ أي: رضوا بمتاع الحياة الدنيا، وجعلوا التمتع بها منتهى رضاهم ورجاءهم.

الثالثة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا﴾ الكثيرة، الدالة على قدرتنا ﴿غَافِلُونَ﴾ عن الاعتبار بها والإيمان بها، والانتفاع بها.

هؤلاء هم الذين يستبعدون الوحي، ويعاندون النبي، وينكرون أن القرآن من عند الله.

ولكن ما جزاؤهم؟..

﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾

وهذا هو العدل، وما ربك بظلام للعبيد، وما ظلمهم الله، ولكن أنفسهم يظلمون.
وهناك فريق آخر من الناس، لم يستبعد الوحي، ولم يكفر بالله، ولم يعاند محمداً،
وعمل بالقرآن وما فيه. يقول عنهم ربهم جل وعلا:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾

أي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي يصلحون بها
البلاد، ويسعدون بها العباد.

هؤلاء: يختلفون عن الفريق الأول اختلافاً كاملاً حيث ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾ يسدّد
طريقهم في الدنيا للاستقامة، ويوفّقهم إلى سلوك الطريق المؤدّي بهم إلى مرضاة ربهم.
ولكن ما جزاؤهم؟ جزاؤهم أنهم ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ﴾ أي: من تحت قصورهم،
﴿الْأَنْهَارُ﴾ وهم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

أيضاً.. ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

﴿دَعَوْنَهُمْ﴾ أي: دعاؤهم وتسييحهم ونداؤهم ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة.. هو
﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ تلذذاً بذكره تعالى. أولاً.

وكذلك ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ لبعضهم البعض، أو تحية الملائكة لهم، أو تحية الله لهم
﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة.. هو قولهم: ﴿سَلَامٌ﴾ أي: سلامة من كل مكروه وأذى. ثانياً.

وثالثاً: ﴿وَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ﴾ يعني: وخاتمة تسييحهم، ونهاية لقائهم، في كل مجلس
هو قولهم: ﴿أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الله !! نعم الجزاء: جزاؤهم، اللهم إنا نسألك أن تجعلنا من هؤلاء يا رب العالمين.

انظر إلى حكمة الباري ولطفه بعباده حينما يقول:

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١١﴾

والمعنى: أن الله تبارك وتعالى لا يستجيب للناس إذا دعوا على أنفسهم، أو على أولادهم أو على أموالهم بالشر؛ وذلك في حالة غضبهم؛ لأنه سبحانه يعلم أنهم لا يريدون ذلك.. مثلما يستجيب لهم إذا دعوا بالخير.

ولو أنه عز وجل استجاب لهم، وعجل لهم الشر الذي دعوا به، كما يعجل لهم الخير إذا دعوا به لأهلكهم، ولكنه تعالى يمهّلهم رحمة بهم ولطفًا منه عليهم.

وفي الحديث الشريف قوله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم.. لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة؛ فيستجيب لكم».

ومن هؤلاء الذين يمهّلهم رب العزة ولا يمهّلهم: الكافرون.

حيث يقول: ﴿فَنَذَرُ﴾ أي: نترك ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: الذين لا يؤمنون باليوم الآخر ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ وتجاوزهم حدود الله، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: ليس قائلهم هو الذي يقول:

﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْتِنَا عَذَابَ آلِ يَمٍّ﴾ [الأنفال: ٣٢]؟

وبعد أن بين المولى أنهم يستعجلون نزول العذاب، وأنه لا يجيئهم لطفًا ورحمة بهم.. !!
يبين بعد ذلك أنهم كاذبون فيما يطلبونه ويدعون به، حيث يقول جل جلاله:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢﴾

يعني: إذا أصاب الإنسان أي ضرر أو وقع به أي مكروه لجأ إلى الله تعالى، وصار يدعوه في كل حالاته وأحواله، مضطجعًا أو قاعدًا أو قائمًا، طالبًا منه سبحانه إزالة الضرر، ورفع المكروه.

يقول المولى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ﴾ وأزلنا عنه المكروه عاد إلى سابق عهده، ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾ يمسسه ضرر ولم يدعنا إلى رفع هذا الضرر عنه.

هذا إنسان سيء، لم يعرف الله فضله، ولم يشكره حق شكره، زين له الشيطان فخدع، ودعاه للطغيان فاستجاب.

﴿كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: زين الشيطان للمتجاوزين الحدود، البعيدين عن طاعة الله ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من البعد عن الله، والإعراض عن ذكره، والاهتداء بهديه.

وهذه ليست طبيعة إنسان هذا العصر فقط، بل هي طبيعة السابقين الذين أرسل الله الرسل لهدايتهم، أيضًا يقول الله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾

أي: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ﴾ الأمم التي كانت ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾. وذلك ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ طغوا وبغوا وأشركوا بالله تعالى ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ بالدلائل الواضحات، والآيات البينات للإيمان بالله والعدول عن ظلمهم وطغيانهم. ومع ذلك ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي: أصروا على الكفر والطغيان.

يعني: لَمَّا ظَلَمُوا وأصروا على الكفر، وصاروا بذلك مجرمين أهلكناهم، ومثل هذا الإهلاك ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ من أية أمة.

وأنتم يا أهل هذا العصر سائرون في نفس الطريق فاحذروا.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾ يعني: يا من بعث إليهم محمد ﷺ ﴿جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: استخلفناكم في هذه الأرض من بعد هذه القرون، التي أهلكناها لتكذيبها.

وذلك ﴿لِنَنْظُرَ﴾ وننتظر ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فنجازيكم عليه، إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًا فشر.

ثم يخبرنا ربنا عز وجل عن كفار هذه الأمة، فيقول جل وعلا:

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتِ بِشُرٍّ

غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْعَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

والمعنى: أن الكفار كانوا إذا قرأ النبي ﷺ القرآن عليهم؛ قال هؤلاء الذين لا يخافون البعث استهزاء منه وسخرية به ﴿أَنْتَ يَقْرَأُ غَيْرَ هَذَا﴾ ليس فيه عيب آلهتنا ﴿أَوْ بَدَّلَهُ﴾ وكأنه هو الذي ألفه من عند نفسه.

يقول تعالى لحبيبه: رُدَّ عليهم و ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي﴾ لأنني لم أقم بتأليفه من عندي.

وأنا ﴿إِنْ أَتَيْعَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ من غير تغيير أو تبديل؛ لأن ما أتيت به ليس من صنعي.

﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بمحاولة فعل ما طلبتم، وهو ليس بممكن ﴿عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لا ينفع فيه مال ولا بنون. أيضًا رد عليهم:

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٦﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين يقولون لك ﴿أَنْتَ يَقْرَأُ غَيْرَ هَذَا﴾ [يونس: ١٥] لا أستطيع؛ لأنه من عند الله، وليس من عندي، و ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ أصلاً.. ما تلوته، لأنني أمي، لم أتعلم من أحد، ولم أشاهد العلماء، كما أنني قد ﴿لَبِثْتُ فِيكُمْ﴾ ومكثت بينكم ﴿عُمُرًا﴾ تعرفوني فيه جيداً ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل أن أتلوه عليكم، وما جربتم عليّ كذباً قط.

إضافة إلى أن ما أتلوه عليكم من القرآن: قد حوى من المعجزات ما تعرفون، بل دعاكم ربي للإتيان بمثله، أو بمثل سورة منه فلم تستطيعوا.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتدركون أنه الحق من عند الله، فتؤمنون، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتدركون إذا أنني لا أكذب على الله، فكيف تكذبون..؟

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٧)

يعني: ليس هناك ﴿أَظْلَمُ﴾ أشد ظلماً وأعتى إجراماً ﴿مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: ادعى أن الله أرسله، وهو ليس بذلك، أو نسب إلى الله كلاماً، وهو فيه كاذب ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ كذلك كمن كذب بالقرآن.

والمفترون على الله الكذب، والمكذبون بآيات الله: مجرمون لا يفلحون؛ حيث إنه
﴿لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

ومن جرائم الكافرين، المكذبين بآيات الله ما يحكيه عنهم ربنا عز وجل، بقوله:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا
عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ
وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨)

أي: هؤلاء المكذبون ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني غير الله ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾
لو لم يعبدوه ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ لو عبدوه، وهي: الأصنام.

والعجيب أنهم ﴿يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ﴾ الأصنام ﴿شَفَعُونَا﴾ في أمور الدنيا من طلب
الغنى والصحة وغير ذلك ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وأما أمور الآخرة: فهم لا يحتاجون شيئاً؛ لأنهم
لا يؤمنون بالبعث أصلاً.

يقول تعالى لحبيبه رداً عليهم: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي
السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وهو العليم بهما، وما فيهما ومن فيهما، كيف يكون هذا؟
ثم نزه ربنا نفسه عما يدعون من الشركاء والشفعاء، فقال: ﴿سُبْحَنَهُ وَعَلَىٰ عَمَّا
يُشْرِكُونَ﴾.

وللعلم، هذا الشرك لم يكن في الناس قبلاً، بل هو حادث فيهم جديد منهم، بدليل
قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٩)

والمعنى: أن الناس كلهم كانوا ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على دين الإسلام، ثم وقع بينهم الخلاف والاختلاف، وصاروا بذلك مللاً، فيهم أهل الحق وأهل الباطل، فبعث الله الرسل بالآيات، فأمن من آمن، وكذب من كذب.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخير الحكم النهائي إلى يوم القيامة، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ووقع الهلاك العام بالمكذبين.

ولكن شاء الله بتأخير هذا الحكم، ليكون الثواب والعقاب، وليعود الناس إلى ما كانوا عليه ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، ولذلك لا ينبغي أن يغتر الكافر بعدم تعجيل العذاب، كما لا ينبغي أيضاً أن يغتر العاصي بتأخير العقاب.

وإن شئت أن تعجب من هؤلاء المكذبين، الذين: ﴿يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]. فاقراً معي ما يقولون:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٢٠)

أي: يقول هؤلاء تعنتاً: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي: على محمد ﷺ ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ من الآيات التي اقترحوا نزولها كشرط للإيمان به، والتي يحكيها عنهم ربنا في قوله:

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا﴾ (٩٠) ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ (٩١) ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيلاً﴾ (٩٢) ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذُخْرِ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

وهنا، يقول له ربه: ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ﴾ أي: الأمر كله لله، ما غاب ولم يحدث، وكذلك ما حدث، فليس لي من الأمر شيء.

وإن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا هذه الآيات ﴿فَانظُرُوا﴾ حكم الله ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

وبعد أن تخبر هؤلاء المعاندين بأن الغيب لله، قل لهم أيضًا ردًا على طلبهم الآيات:

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّهِمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي ءَايَانَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ (٢١)

يعني: هؤلاء الكفار عادتهم العناد والمكر، وعدم الإنصاف.

لقد سلطنا عليهم القحط، ثم رحمناهم وأرسلنا المطر غيثًا لهم؛ فنسبوا ذلك إلى الكواكب والأصنام، ولم ينسبوها إلى الفاعل الحقيقي وهو الله، ولو أنزلنا لهم من الآيات ما اقترحوا لظلوا على كفرهم، ولم يؤمنوا.

ولذلك ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد: ﴿اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أعجل بالعقوبة لكم من مكركم، واستهزائكم بآيات الله.

و﴿قُلِ﴾ لهم أيضًا: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ أي: الحفظة ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ لا تفوتهم صغيرة ولا كبيرة، حتى ينتقم الله منكم.

هذا الإله الذي تطلبون منه أن ينزل الآيات، وأنتم تمكرون، وتعاقدون:

﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبَئَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَفِّرَنَّ مِنَ الشُّكْرِ﴾ (٢٢)

أي: هو الله، الذي يمكنكم من السير في البر بأقدامكم، أو بدوابكم أو بمخترعاتكم، وفي البحر سباحة، أو بالسفن، والبوارج، وغير ذلك.

﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ﴾ (فِي الْفُلِكِ) وهي السفن، وكانت تسير بكم في أمان وسلام، وأنتم فرحون متمتعون.

وبينما هي كذلك، وأنتم على هذا الحال ﴿جَاءَتْهَا﴾ أي: هذه السفن ﴿رِيحٌ

عاصِفٌ ﴿ شديدة السرعة، عنيفة القوة، تدمر كل شيء في طريقها ﴾ ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ﴾
وعلا بهم موج البحر، بسبب هذه الريح العاصفة ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ يعني: من كل
جهة في البحر، ووصل الحال أن من فيها ﴿طَنُوا﴾ أي: تيقنوا وتأكدوا أنهم ﴿أُحِيطَ
بِهِمْ﴾ أي: هالكون لا محالة، في هذه الحالة ﴿دَعَوْا اللَّهَ﴾ وحده ونسوا أصنامهم
وآلهتهم، التي كانوا يزعمونها ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ مخلصين في الدعاء، مجتهدين فيه،
قائلين: ﴿لَئِنْ أَجَبْتَنَا﴾ يا رب ﴿مِنْ هَذِهِ الْمَصِيبَةِ﴾ لنكوننَّ لك ﴿مِنَ
الشَّاكِرِينَ﴾ الموحدين، العابدين، لا نؤمن بغيرك، ولا نعبد سواك. ثم ماذا..؟

﴿فَلَمَّا أَتَجَّهُمُ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمُ عَلَى
أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾
يعني: ﴿فَلَمَّا﴾ استجاب الله دعاءهم و ﴿أَتَجَّهُمُ﴾ من الشدة التي كانوا فيها،
والمصيبة التي حلت بهم.. ﴿إِذَا هُمْ﴾ بدلًا من أن يؤمنوا، وأن يشكروا ﴿يَبْغُونَ فِي
الْأَرْضِ﴾ أي: يفسدون فيها، وينكرون نعمة الله عليهم ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ .. !!
سبحان الله.. إن أمر الناس عجيب.. !!

﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ﴾ الذين يحدث منكم ذلك لا تبغوا في الأرض وتفسدوا فيها،
وتؤذوا أهلها ﴿إِنَّمَا﴾ وبال بغيكم هذا ضرره ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ وحدكم لا غيركم.
﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّمَا﴾ الذي يغركم ويفتنكم شيء تافه وهو ﴿مَتَّعَ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا﴾ الزائل، الذي لا بقاء فيه، نحن ننبهكم ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ بعد الموت
﴿فَنُنَبِّئُكُمْ﴾ بعد البعث ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ونجازيكم عليه.
يا أيها الناس.. لا تغتروا بالحياة الدنيا:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا
يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَلَّتْ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ
قَدْ رُوتَ عَلَيْهَا أُنْتَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَقَفْ
بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

أي: ﴿مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ في تغييرها وتقلبها وسرعة زوالها وانخداع الناس بها ﴿كَمَاءٍ أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني: السحاب ﴿فَأَخْلَطَ بِهِ﴾ أي: هذا الماء ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ فازدهرت الأرض وأينعت وأثمرت وأخذت زخرفها وازينت للناس بشمارها ومنتجاتها، ﴿وَوَضَعَ أَهْلُهَا أُنْثَمَ قَدِرُونَ عَلَيْهَا﴾ باستغلالهم لها، وإبداعهم فيها، واختراعاتهم عليها، وقدرتهم على التصرف في أمورها، واطمأنوا لذلك، ﴿أَتُنْهَى أَمْرُنَا﴾ إتلافاً لشمارها، وتخريباً لمنشأتها، وتعذيباً لأهلها ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ حسبما نشاء ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ ليس عليها شيء ﴿كَأَن لَّمْ تَعْبَ بِالْأَمْسِ﴾ يعني: كأن لم تكن، ولم يكن فيها شيء، ولم يكن عليها بشر، منذ وقت قريب.

﴿كَذَلِكَ﴾ وهكذا ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ القرآنية والدلائل الكونية على قدرة الله ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعتبرون ويتفكرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعاً، بعد تمكنهم منها، وثقتهم فيها، ونسوا أن من طبيعتها الهرب ممن طلب، والطلب لمن هرب، وعلى العاقل أن يعرف الله، وأن يعبد الله، وأن يشكر الله. خاصة أن:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٥)

وهذا ترغيب للناس في الحياة الآخوية، بعد ترهيبهم من الركوب للحياة الدنيوية.

والمعنى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا﴾ عباده ﴿إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ وهي الجنة، بطلب الإيمان منهم، كما أنه سبحانه هو الذي ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام.

هدانا الله وإياكم جميعاً إلى دينه، وسعادة العمل بتعاليمه، وأنعم علينا بدخول جنته «دار السلام».

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٦)

والمعنى: أن الذين أحسنوا في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح لهم من ربهم ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ في الدار الآخرة، وهي التوبة الحسنة جزاء إحسانهم.

ولهم أيضًا ﴿زِيَادَةٌ﴾ على ذلك؛ حيث يضاعف الله لهم ثواب أعمالهم، بالحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى غير ذلك من صور الزيادة.. من القصور، والحدود العينية، وما أخفاه لهم من قرة أعين، الذي هو أفضل من كل ذلك، وهو النظر إلى وجهه الكريم، وفي ذات الوقت ﴿وَلَا يَرَهُمْ وَجُوهُهُمْ﴾ لا يغشاها ﴿قَتَرٌ﴾ يعني: سواد ﴿وَلَا ذَلَّةٌ﴾ كما يحدث لأهل النار من السواد والهوان والإهانة في الباطن والظاهر.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين أحسنوا هم ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

هذا حال المؤمنين في الآخرة، وأما حال الكافرين فيها يقول عنهم ربنا عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧)

أي: أن الذين أساءوا في الدنيا و﴿كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: اقترفوها، لهم من ربهم عكس الذين أحسنوا في الدنيا؛ حيث يكون عقابهم ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ وهذا هو العدل الإلهي.

وفي ذات الوقت ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ تعلق وجوههم ذلة ومهانة من معاصيهم التي ارتكبوها، وخوفهم من العقاب عليها.

﴿مَّا لَهُمْ﴾ ليس لهم من عقوبة ﴿اللَّهِ﴾ هذه ﴿مِّنْ عَاصِرٍ﴾ يمنع عنهم ذلك، أو يحميمهم منه.

ويصير سواد وجوههم في الآخرة شديدًا ﴿كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ غُطِيَتْ وَجُوهُهُمْ﴾ بهذا السواد الذي يكون ﴿قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أي: كقطع الليل الأسود المظلم.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين كسبوا السيئات هم ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِِنَّا نَتَّبِعُونَ﴾ (٢٨)

يعني: ﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: المشركين وشركاءهم ﴿جَمِيعًا﴾ الذين كانوا في كل العصور وكل البيئات.

﴿ثُمَّ﴾ نعقد مواجهة بين المشركين ومعبوداتهم من دون الله، ف ﴿نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الزموا ﴿أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ﴾ مكانًا قفوا فيه، ولا تغادروه.

وبعد.. ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ فرّقنا وميزنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ المشركون على حدة، وما كانوا يشركونهم على حدة، وتنطق هذه المعبودات التي كانوا يشركونها مع الله ﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ﴾ لهم تبرؤوا منهم ﴿مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَاعْبُدُونَ﴾ بل كنتم للشياطين طيعون، ولأهوائكم تتبعون.

ثم نقول لهم كذلك:

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ﴾ ﴿٢٩﴾

أي: نحن نستشهد على ما قلناه لكم: ﴿مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَاعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] وكفى ﴿بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على ذلك ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ إذ ما دعوناكم إلى عبادتكم لنا، ولا أمرناكم بها.

كما أننا ﴿كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ لنا ﴿لَغْفِيلِينَ﴾ لم نشعر بها، ولم نعلم، بل كنتم تعبدوننا دون أن ندري.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٣٠﴾

يعني: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في هذا اليوم، وفي هذا المكان ﴿تَبْلُوا﴾ تذوق ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ أشركت بالله، وعاندت رسله.. جزاء ﴿مَّا أَسْلَفَتْ﴾ وقدمت من كفر ومعصية. ﴿وَرُدُّوْا﴾ أي: أعيدوا ﴿إِلَى﴾ ربهم الحقيقي وهو الله سبحانه ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل.

﴿وَصَلَ عَنْهُمْ﴾ بذلك ﴿صَلَ عَنْهُمْ﴾ وغاب نفع ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ويختلقونه من الآلهة، التي كانوا يعبدونها من دون الله.

يا محمد.. هؤلاء المشركون الذين ينكرون الوحي، والذين قد حكينا لك عن بعض أحوالهم فيما سبق، ناقشهم مباشرة، وأبطل عللهم في إنكار الوحي، على النحو التالي:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَنْقُونَ ﴿٣١﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَنْ﴾ الذي ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بالمطر ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بالنبات؟

بل مَنْ الذي ﴿يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ ويستطيع تسويتهم، وحفظهما من الآفات مع كثرتها، وسرعة تأثرهما من أدنى شيء..؟

وقل: ﴿مَنْ﴾ الذي ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ كالحيوان من التراب، والتراب من الحيوان، أو العالم من الجاهل والعكس، أو المؤمن من الكافر والعكس..؟

﴿و﴾ قل لهم بصفة عامة ﴿مَنْ﴾ الذي ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ لهذه الخلائق كلها، فيتولى أمورها، ويسير شؤونها..؟

أتدري بماذا يجيبون على أسئلتك هذه لهم..؟

﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ هو الذي يرزقنا، وهو الذي يملك أسمعنا وأبصارنا، وهو الذي يخرج الحي من الميت والعكس، وهو الذي يدبر أمر العالم كله..!! وبهذا يعترفون بوجود الله وقدرته.

﴿فَقُلْ﴾ لهم إذا لم تنكروا الوحي، وتستبعدون أن يرسل الله لكم رسولاً منكم، يكون نذيراً وبشيراً، ﴿أَفَلَا تَنْقُونَ﴾ الله وتخافون عقابه، بسبب إنكاركم هذا..؟
وقل لهم أيضاً:

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتُمْ تُصْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

أي: ﴿فَذَلِكُمْ﴾ الإله، الفعّال لهذه الأشياء، والذي اعترفتم بوجوده، وقدرته عليها هو ﴿اللَّهُ﴾ الذي هو ﴿رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ الثابت، وليست الأصنام التي تعبدونها، وهو الذي يستحق وحده العبادة والطاعة، التي لا تكون إلا بوحى، وعن طريق رسول.. فكيف

إِذَا تَنَكَّرُونَ...!! وَلَا ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ﴾ والاعتراف به والإذعان له ﴿إِلَّا الضَّلَالُ﴾؟

﴿فَأَنِّي تُصْرَفُونَ﴾ عن هذا الحق إلى هذا الضلال، وعن الإيمان إلى الكفر، مع قيام الأدلة والبراهين على هذا الحق...؟

وبسبب تعنت هؤلاء المشركين، صرفهم الله عن الحق إلى الضلال، لذلك يقول ربنا عز وجل:

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣)

يعني: كما حقت على هؤلاء المشركين أنهم لا يؤمنون بسبب تعنتهم، حقت هذه الكلمة ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على كل الذين فسقوا وخرجوا عن طاعة الله، وأنكروا الوحي، واستبعدوا إرسال الرسل.

وهذه حجة أخرى يا محمد - ويا كل داعية إلى الله - ناقشهم فيها، وأفحمهم بها، وأبطل عللهم:

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (٣٤)

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ التي أشركتموها مع الله، وعبدتموها من دون الله ﴿مَنْ﴾ يستطيع أن ﴿يَبْدُوا الْخَلْقَ﴾ كله من أول أمره، وهو العدم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ كما كان مرة أخرى، أو يعيده يوم القيامة...؟

أتدري بماذا يجيبوك...؟ لن يجيبوك.

إِذَا.. ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿اللَّهُ﴾ هو الذي ﴿يَبْدُوا الْخَلْقَ﴾ وحده ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ كما كان، أو يعيده يوم القيامة، ومن كان كذلك ينبغي التسليم والإذعان له، والإيمان به.

وإِلَّا ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ تصرفون عن الحق إلى الإفك، وهو الكذب الواضح والضلال البين...؟

وهذه حجة ثالثة يا محمد - ويا كل داعية إلى الله - ناقشهم فيها، وأفحمهم بها، وأبطل عللهم معها.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣٥) والمعنى: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي﴾ ويرشد ﴿إِلَى الْحَقِّ﴾ وهو معرفة الصواب، والهداية إليه..؟ الجواب: لا.

قُلْ إِذَا: ﴿اللَّهُ﴾ هو الذي ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾.

وعلى هذا.. أفلا تعقلون أن ﴿مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ هو ﴿أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾ ويطاع، وليس العاجز، الذي لا يهدي إلا أن يهديه غيره، ﴿أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ هو لعماء وبكمه..؟

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذه الأحكام الفاسدة، وكيف تتبعون هذه الضلالات الواضحة؟ وكيف تستبعدون الوحي، وتنكرون إرسال الرسل؟

إن عدم فهمهم، وسوء حكمهم، وفساد اعتقادهم راجع إلى سوء ظنهم، يقول الله تعالى:

﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦)

أي: أن الذي قادهم إلى ضلالهم اتباعهم الظن و﴿الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ حيث إنه أوهام وتخيلات تقود إلى فساد وضياح.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وسيجازيهم بالسوء عليه.

وإذا كان هؤلاء يسيرون خلف ظنونهم، ويتبعون أوهامهم، فإن القرآن ليس كذلك، حيث إنه حقائق ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧]، كما أنه طريق خلاصهم من هذه الظنون والأوهام.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٧)

يعني: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ ولا ينبغي ولا يعقل ﴿أَنْ يُفْتَرَى﴾ ويخلق حسب

ظنونهم ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تعالى، أي: من غيره، وينسب إليه زورًا، كما يتَّهمون بذلك محمدًا ﷺ.

﴿وَلَكِنْ﴾ ليعلموا جيدًا أنه ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المتقدمة عليه؛ حيث يهيمن عليها، ويبين ما وقع من التحريف والتبديل فيها.

كما أن فيه ﴿تَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ أي: بيان ما كتب وفرض من الشرائع والأحكام، والحلال والحرام.

حقًا.. إنه كتاب ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه وهو منزل ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فكيف إذا ينكرون الوحي، ويستبعدون إرسال رسول يوحى إليه..!!؟

إنهم - بعد هذا كله - لا حجة لهم في ذلك ولا دليل.

وإذا كان هؤلاء ينكرون الوحي الإلهي كله..!! فإن فريقًا آخر ينكر ألوهية القرآن، ويتهم محمدًا ﷺ أنه اختلقه من نفسه، ونسبه افتراءً وكذبًا إلى الله.

فلنقرأ سويًا قوله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨)

أي: إن كنتم صادقين في أن محمدًا هو الذي ألَّف القرآن، فاتوا أنتم - لتثبتوا صدقكم - بسورة مثله، كما أتى هو به..؟

إنه منتهى التحدي، بل منتهى إثبات عجزهم، وللعلم:

فقد تحدَّاهم الله أولًا: أن يأتوا بمثل القرآن كله في قوله تعالى:

﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ آلِإِنْسِ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] فعجزوا..!!

وتحدَّاهم ثانيًا: أن يأتوا بمثل عشر سور منه في قوله تعالى:

﴿قُلْ فَاتُوتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ﴾ [هود: ١٣] فعجزوا..!!

وتحدَّاهم ثالثًا: أن يأتوا بمثل سورة واحدة فقط منه، كما في هذه الآية فعجزوا..!!

وتحدَّاهم أخيرًا: أن يأتوا بمجرد حديث مثله في قوله تعالى:

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤] فعجزوا!!..

ولكن هل موقفهم هذا من القرآن عن علم ودراسة له ولما فيه؟ أبداً.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٩)

أي: أن هؤلاء ﴿كَذَّبُوا﴾ بالقرآن دون معرفتهم لما فيه ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ حتى قبل أن يدركوا روائعه وإعجازه، بل إنهم - بعد ذلك - ظلُّوا مصرين على موقفهم من هذا التكذيب.

ومثل هذا التكذيب الذي لا يقوم على دليل ﴿كَذَّابَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ رسلهم عناداً، قبل معرفتهم للآيات التي معهم.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ المكذبين، لتحذر من أن تكون نهايتك الهلاك والعذاب، كما كانت نهايتهم.

هؤلاء المكذبون بالقرآن أصناف، يقول الله تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٤٠)
يعني: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: المعاندون ذلك، المكذبون بالقرآن ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ في المستقبل ويهديه الله بعد كفره.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أبداً، ويظل على كفره، وعناده وإفساده.
﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ ينجيك منهم، وينصرك عليهم، ويجعل كيدهم في نحورهم. على كل حال:

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ
مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤١)

المعنى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ واستمروا على ذلك ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿لِي﴾ جزء عملي ﴿وَلَكُمْ﴾ جزء عمليكم.

﴿كَمَا أَنْكُمْ﴾ أَنْتُمْ بَرِيْتُونَ وَمَا أَعْمَلُ ﴿لا علاقة لكم به﴾ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿لا علاقة ولا صلة لي به.

وهذا - كما يقول العلماء - منسوخ بالأمر بقتال المشركين.

وهذا صنف آخر:

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٢) يعني: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: المعاندون لك صنف آخر، وهم ﴿مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ولكنهم لا يؤمنون، فهم كالصم الذين لا يسمعون.

﴿أَفَأَنْتَ﴾ قادر على أن ﴿تُسْمِعَ الصُّمَّ﴾ حتى ﴿لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ أيضًا؟ ولذلك لا تستبعد إذا أن يعاندوا ويكفروا بالقرآن.. !!

وهذا صنف آخر منهم، اقرأ معي:

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٤٣) أي: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: المعاندون ﴿مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ ويعاينون أدلة الصدق في كلامك، ويرون علامات النبوة في بيانك، ولكنهم لا يصدقون!

كما ينظرون إلى سمتك الحسن، ويبصرون خلقك العظيم، ولكنهم لا يؤمنون!

فهم إذا، كالعمي الذين لا يبصرون.. !!

﴿أَفَأَنْتَ﴾ قادر على أن ﴿تَهْدِيَ الْعُمْى﴾ حتى ﴿لَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ أيضًا؟ ولذلك لا تستبعد إذا أن يعاندوا ويكفروا بالقرآن!!

على أية حال هؤلاء ظلموا أنفسهم لأن:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٤) يعني: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ﴾ ويسلب منهم عقولهم، وآليات استدلالهم على الحق، ومعرفة الخير، واتباعه.

﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ﴾ هم الذين يعاندون الحق، ويتبعون الهوى، ويحرمون أنفسهم

الخير، والاهتداء والانتفاع به، وبذلك فهم ﴿أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

هؤلاء استبعدوا الوحي، وأنكروا الرسالة على محمد ﷺ، وكفروا بالقرآن، وظلموا - بذلك - أنفسهم، فماذا أعد الله لهم..؟ اقرأ معي بعض ما أعد الله لهم في الآخرة:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (٤٥)

أي: يوم يحشر الله هؤلاء المكذبين في يوم القيامة، يكون الأمر ﴿كَأَن﴾ أي: كأنهم ﴿لَّمْ يَلْبَثُوا﴾ أي: يمكنوا وقيموا في الدنيا أو في القبور ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ وذلك لهول ما يرون ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ لفترة وجيزة ثم ينقطع التعارف وتنقطع الروابط والأواصر.

يقول ربنا معلنا جزاءهم ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ﴾ حيث إنهم كذبوا الوحي، الذي كان يخبرهم عن يوم البعث هذا، ويطالبهم بالاستعداد له، وهذه هي الخسارة الحقيقية ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ في سلوكهم وتصرفاتهم وعنادهم الذي ساقهم إلى هذه النهاية.

ثم يقول ربنا سبحانه لرسوله:

﴿وَإِنَّمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤٦)

والمعنى: هؤلاء سنعذبهم ﴿وَإِنَّمَا تُرِيدُكَ﴾ في الدنيا ﴿بَعْضَ﴾ هذا العذاب ﴿الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ به، أو ﴿نَتَوَقَّعُكَ﴾ قبل أن ترى في الدنيا عذابهم ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ ومنقلبهم في الآخرة، ونعذبهم.

﴿ثُمَّ﴾ عليك أن تطمئن حيث إن الله ﴿شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ في حياتك وبعد مماتك، وسيجازيهم عليه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٧)

أي: سَتَنَّا أَنَّهُ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ يرسل إليها؛ لينبِّههم إلى الحق، ويدعوهم إلى توحيد الله وعبادته.

﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ إليهم، وبلغهم، ودعاهم، فكذبوه، ولم يستجيبوا لدعوة الحق ﴿فُضِيَ﴾ بينه و ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فيما دعاهم إليه ﴿بِالْقِسْطِ﴾ وهو العدل، فينجي الله الرسل والمؤمنين معهم، ويعذب المكذبين ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بهذا التعذيب؛ حيث إنهم أجزموا في حق أنفسهم وغيرهم، وهكذا نفعل بمكذبي هذه الأمة أيضًا. العجيب أن هؤلاء المكذبين بدلًا من أن يسارعوا بالتصديق بالقرآن والإيمان بالله، واتباع الرسول، بعد معرفة العذاب الذي ينتظرهم بدلًا من ذلك يسألون متشككين:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨)

يعني: ﴿يَقُولُونَ﴾ للنبي والذين آمنوا معه استبعادًا، أو استهزاء: ﴿مَتَى﴾ يكون ﴿هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي: العذاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تقولون؟! ويأمر ربنا رسوله بهذا الأمر:

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٤٩)

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم:

أولًا: أنا عبد لا أملك لنفسي شيئًا من أمري ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن يكون. وثانيًا: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ مكذبة ﴿أَجَلٌ﴾ ووقت معلوم في اللوح المحفوظ لعذابهم، ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ أي: وقت عذابهم ﴿فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

ولذلك فلا تحاولوا معرفة وقته أو استعجال مجيئه، بل استعدوا للنجاة منه بالإيمان والتصديق، والعمل الصالح.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابٌ بَيِّنًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٠)

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ يعني: أخبروني ماذا تريدون؟ ﴿إِنْ أَتَاكُمْ﴾ من الله

﴿عَذَابُهُ﴾ الذي تستعجلون ﴿بَيْنَتًا أَوْ نَهَارًا﴾ ليلاً وأنتم نائمون، أو نهاراً وأنتم تعملون.

﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ إلا الندامة والحسرة على هذا الاستعجال، والألم الشديد على ما يكون.

﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَالْتَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾
والمعنى: هل ﴿إِذَا مَا وَقَعَ﴾ العذاب ﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ؟﴾
حتى ولو حدث ذلك يقال لكم: لا يقبل منكم الإيمان ﴿ءَالْتَنَ﴾ خاصة ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ﴾ أي: العذاب ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ استهزاء وإنكاراً!!
وعلى لسان ملائكة العذاب يوم القيامة يكون ما يحكيه الله تعالى بقوله:

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾
أي: ﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا كله ﴿قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالكفر والتكذيب والاستهزاء
﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: العذاب الدائم.
ويكون استفهام تقريرى، يقال لهم فيه: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي:
جزاء ما كنتم تفعلونه وتكتسبونه من شرك، وكفر، وعناد، واستهزاء..
ثم - بعد ذلك - يكون منهم سؤال آخر يحكيه المولى عز وجل بقوله:

﴿وَيَسْتَنْشِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُمْ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾
والمعنى: ﴿وَيَسْتَنْشِئُونَكَ﴾ أي: يستخبرونك ويسألونك قائلين: ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ أي:
البعث والعذاب..؟ وإذا كانوا يسألون عبثاً واستهزاء: فأجبههم أنت بكل جِدَّةٍ.
﴿قُلْ﴾ لهم ثلاثة أشياء هي:

- أ - ﴿إِي وَرَبِّي﴾ نعم وربى، وهو قسم لهم على وقوع البعث.
 - ب - ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: البعث والعذاب، الذي تسألون عنه ﴿لَحَقُّ﴾ واقع بكم.
 - ج - ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ الله تعالى عن إعادتكم للبعث بعد موتكم.
- يلاحظ: أن النبي ﷺ لم يقسم - بأمر ربه - على وقوع البعث في القرآن الكريم إلا في هذه الآية، وآيتين أخريين هما:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبا: ٣].

و ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [التغابن: ٧].

وبعد هذا القسم يبين الله لهؤلاء الكافرين هؤل ما سيلاقونه في يوم البعث الذي ينكرون.. فيقول جل شأنه:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ. وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٥٤)

يا سبحان الله !! لو أن لكل نفس ظالمة ما في الدنيا كلها من الأموال والكنوز، وكل شيء يوم القيامة لافتدت به، من سوء ما تجد من الأهوال وألوان العذاب.

﴿وَأَسْرُوا﴾ أي: الكفار ﴿النَّدَامَةَ﴾ والحسرة عجزاً منهم وخجلاً ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ ونزل بهم.

﴿و﴾ كذلك عندما ﴿فُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ وعوملوا بالعدل في هذا اليوم، ووجدوا أنهم ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئاً.

ومن هنا فعلى كل عاقل أن يفتدي نفسه الآن قبل أن لا ينفع الفداء.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)

هنا: يخبر سبحانه أنه مالك السموات والأرض، وأن وعده حق واقع لا محالة، وأنه يحيي ويميت، وإليه مرجع الخلائق كلها، وأنه وحده القادر على ذلك.

وبعد أن حذر الله عباده من عواقب الضلال، يستميلهم إلى الخير والفلاح بما في القرآن من موعظة وهداية، فيقول عز وجل:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧)

يعني: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ جميعاً ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: القرآن، فيه ما لكم وعليكم، وفيه بيان ما ينفع من الأعمال والترغيب فيها، وبيان ما يضر من الأعمال والتحذير منها.

وهذا القرآن الذي يحتوي على الموعظة، فيه من الخصائص والمزايا الكثير.
فهو: ﴿شِفَاءٌ﴾ أي: دواء وعلاج ﴿لَمَّا فِي الصُّدُورِ﴾ من الشكوك والوساوس،
والعقائد الفاسدة، والشبه المهلكة.
وهو: ﴿هُدًى﴾ لمن أراد الله له الهداية، يهتدي بما فيه إلى الحق، وإلى طريق
الصواب، ويتبعد بما فيه عن الغواية والضلال.
وهو: ﴿رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين به، العاملين بتعاليمه وأحكامه، رحمة لهم
في الدنيا وفي الآخرة.
وهذا هو فضل الله على عباده.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨)

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم: الفرح الحقيقي الذي ينبغي أن يسعد به الإنسان هو: ﴿بِفَضْلِ
اللَّهِ﴾ على عباده بالإسلام، ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ لهم بالقرآن.
ومن هنا ﴿فَبِذَلِكَ﴾ الفضل، وبهذه الرحمة ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ بهذا الخير الذي من الله
عليهم به.
و ﴿هُوَ﴾ أي: هذا الخير، الذي من الله به على عباده ﴿خَيْرٌ﴾ لهم وأفضل
﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا الزائل.
ويلاحظ: أن هذه الآية الكريمة، تصحح للناس فهمهم الخاطئ لمفهوم الفرح
الحقيقي. وهذا تصحيح لمفهوم آخر:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ ءَلِلَّهِ
أُذُنٌ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفَرُّوتُمْ﴾ (٥٩)

وهذا: في قضية التحليل والتحريم، التي هي لله وحده.

يقول ربنا لحبيبه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم مصححاً ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ يعني: أخبروني ﴿مَا أَنزَلَ
اللَّهُ لَكُمْ﴾ وخلق ﴿مِنْ رِزْقٍ﴾ وتدخلتم فيه بأهوائكم ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ﴾ أشياء

﴿حَرَامًا﴾ كالبحيرة والسائبة، وقد أحلها الله، وجعلتم منه أشياء ﴿حَلَالًا﴾ كالميتة، وقد حرمها الله.

﴿قُلْ﴾ لهم: خبروني برّبكم ﴿ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ فيما فعلتموه من التحريم والتحليل؟ ﴿أَمْ﴾ أنكم ﴿عَلَى اللهِ﴾ ودينه ﴿تَفْتَرُونَ﴾ وتكذبون؟ إنكم حقيقة تفترون على الله ودينه وشرعه وتكذبون..!!

قل لهم يا محمد:

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ إِبَّاءَ اللهُ لَدُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾
يعني: هل يظن ﴿الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ أن الله عز وجل لا يحاسبهم على ذلك ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

كلا.. بل سيحاسبهم، وسينالون ما يستحقون على ذلك من عقاب.

ألا فليعلم الجميع أن الله تعالى ﴿لَدُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حيث أحلّ لهم ما ينفعهم، وحرّم عليهم ما يضرهم.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بالإقبال على الله، والعمل بشرعه.

وبعد هذا التصحيح والتصويب لقضية التحليل والتحريم، بيّن ربنا عز وجل أنه الرقيب على كل أحوال عباده، وهذا تنبيه منه سبحانه بضرورة الالتزام، حيث يقول عز وجل:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

في هذه الآية الكريمة يخبر تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أنه يعلم أحواله، وأحوال أمته، وأحوال الخلائق كلها في كل لحظة، وأنه لا يغيب عن علمه شيء صغير أو كبير.

ولذلك فهو المستحق للإفراد بالعبودية، والتقوى والخشية والتحليل والتحريم.

يقول: وما تكون في أي عمل يا محمد، أو أي تلاوة، كذلك ما تعملون يا عباد الله من عمل ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ لكم ومراقبين ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ حينما تعملونه.

كما أنه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ لا يغيب ﴿عَنْ رَبِّكَ مِنْ﴾ شيء ولو ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ مما خلق ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا﴾ وهو موجود ومثبت ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ.

والذي يدرك ذلك جيداً، ويؤمن به، هم أولياء الله:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢)

يعني: هؤلاء الأولياء ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما ينتظرونه من أمور الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على شيء من أمور الدنيا.

ولكن.. من هم هؤلاء الأولياء؟

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٦٣)

يعني: هم ﴿الَّذِينَ﴾ تحقق فيهم هذان الأمران:

الأول: أنهم ﴿ءَامَنُوا﴾ بكل ما يجب الإيمان والتصديق به.

الثاني: أنهم ﴿كَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الله، بامثال أمره، واجتناب نهيه، وتطبيق شرعه.

ويفهم من هذا، أنه لا ولاية لله إلا بهذا، وليس ولي الله تعالى من كان على غير هذا.

ولكن أيضاً.. ما جزاء هؤلاء الأولياء؟

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ ذَلِكُ﴾

هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

أي: ﴿لَهُمُ﴾ عند الله، ومن الله ﴿الْبُشْرَى﴾ الحسنة، وذلك: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

سواء أكانت هي الرؤيا الصالحة، كما في الحديث الشريف قوله ﷺ:

«هي الرؤيا الصالحة، يراها المسلم، أو ترى له».

أم كانت بشرى الملائكة للمؤمن عند خروج روحه، بالجنة والمغفرة، كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]

﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ كذلك.. كما في قوله تعالى:

﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ وَنَنفَخُهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

هذه الوعود الطيبة كلمات الله و ﴿لَا نَبْدِلَ إِكْمَالَتِ اللَّهِ﴾ ولا تغيير.

كما أن ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

هذا حال أولياء الله الذين تسر بهم يا محمد وتفرح لهم، وأما حال أعداء الله:

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٥)

يعني: إذا كان الكفار يعتقدون فاسداً، ويقولون باطلاً، فلا تأبه لهم ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ ولكن استعن بالله، وثق بنصره، وتوكل عليه واعتز به حيث ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ﴾ والقوة والنصرة ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: كلها، بجميع صورها، وأنواعها.. وقد جعلها لرسوله وللمؤمنين: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿السَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده جميعاً ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم كلها؛ وسيجازيهم على الأقوال والأفعال بما يستحقون.

ولكن.. ماذا يقول هؤلاء الكافرون، ويحزن النبي ﷺ؟ هذا ما يعالجه المولى من عقائدهم الفاسدة فيما يلي:

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (٦٦)

وهذه عينة مما كان يحزن النبي ﷺ من أقوالهم، وهي قضية الشرك بالله؛ حيث كانوا

﴿يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ لله.

والقرآن يعالج هذه العقيدة الفاسدة بأمرين:

الأول: تقرير أن الله كل شيء ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ جميعاً، فهو مالك الملك، بما في ذلك العابدون والمعبودون.

الثاني: بيان أن أصحاب هذه العقيدة يجرون خلف ظنونهم وأوهامهم الكاذبة ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون، وتخدعهم ظنونهم.

ثم يبين ربنا دلائل قدرته وملكيته للكون وما فيه بما يثبت عجز ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أنهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾.

فيقول عز وجل:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٦٧)

يعني: ﴿هُوَ﴾ الله ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ ولا أحد غيره يفعل ذلك أو يستطيعه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي جعله لكم ﴿لَآيَاتٍ﴾ بينات واضحات ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر وفهم، فينتفعون به.

وهذا نموذج آخر مما كان يقول الكافرون، ويحزن النبي ﷺ:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٨)

أي: ﴿قَالُوا﴾ هؤلاء الكافرون ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ حيث قال اليهود: عزيز ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت العرب: الملائكة بنات الله.

يرد الله عليهم جميعاً ويبطل أقوالهم بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ منتهى الإيجاز، والإعجاز، أي: تنزه الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

والدليل على فساد قولهم:

أولاً: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن كل خلقه، وعن اتخاذ الولد، ودليل الغنى ﴿لَهُ﴾ وحده
﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.
ثانياً: ليس ﴿عِنْدَكُمْ﴾ أيها الكفار ﴿مِّن سُلْطَانٍ﴾ دليل ﴿بِ﴾ صحة ﴿هَذَا﴾
الذي تدعون.

إذا أنتم: ﴿تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وعلى هذا:

﴿قُلْ إِنِّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (٦٩)
أي: ﴿قُلْ﴾ للذين يقولون: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [يونس: ٦٨] وأمثالهم ﴿إِنِّ الَّذِينَ
يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا يسعدون لا في الدنيا، ولا في الآخرة.
عجيب!! ولكنهم يسعدون بما نراهم فيه الآن، لا.. إن ما هم فيه هو:

﴿مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا
كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠)

يعني: ما هم فيه الآن ﴿مَتَّعٌ﴾ قليل ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ يتمتعون به مدة حياتهم القصيرة.
﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بالموت ﴿ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ بعد الموت
في القبر، وبعد البعث في نار جهنم، كل ذلك بسبب ما ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ به، وبما
كانوا يفترونه من الكذب على الله.

ما زالت السورة وآياتها ترسخ قضية الوحي الذي أنكره المشركون، وتعجبهم أن يوحى
إلى رجل منهم، وهو محمد عليه الصلاة والسلام، لينذر ويبشر بالقرآن حيث تذكر نماذج
من الرسل، الذين أوحى إليهم قبل محمد ﷺ.
ولذلك فلا داعي إذا لاستبعاد موضوع الوحي، ومن ثم الإنكار على محمد أن يرسله الله
إليهم، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقَهُمْ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي
بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ
عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ (٧١)

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: عرفهم واقصص عليهم ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ ﷺ حينما ﴿قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ الذين دعاهم إلى توحيد الله وعبادته:

﴿يَقَوْمِ إِنْ كَانِ كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾ وشقَّ وأصبح ثقيلاً ﴿مَقَامِي﴾ بينكم ﴿وَتَذِكْرِي﴾ لكم ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على وجوده وتوحيده وضرورة عبادته..!! فهذا واجبي وهذه رسالتي إليكم، فاختاروا ما شئتم من الهدى، أو الضلال.

وَأَمَّا أَنَا ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وسأواصل إبلاغكم دون خوف منكم، ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ أنتم ﴿وَشُرَّاءَكُمْ﴾ وافعلوا ما يحلو لكم.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: مخفياً، بل أظهِروه لي وجاهروني به، كيف شئتم، فإنا لا أخافكم. ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ﴾ ونفذوه ﴿وَلَا تُظْهِرُوا﴾ بامهال، أو تأخير. وهذه منتهى الثقة بالله، والتوكل عليه. ثم قال لهم أيضاً:

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٧٢﴾

يعني: إن بقيتم على إعراضكم بعد الذي قلت لكم فلا خسارة علي؛ حيث إنني ما ﴿سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ تدفعونه لي ثمناً لهذا الإرشاد الذي أصنعه معكم، ولكن: أجري على الله، وعنده وحده.

كما أنني ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه، المستسلمين لأمره، لا أخالف أمره، ولا أخاف غيره.

ولكن ماذا حدث بعد أن قال لهم ذلك؟

﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَبَّتْهُ وَمِنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَجَعَلْنَهُمْ حَلِيفَ وَاعْرِفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُذْذَرِينَ﴾ ﴿٧٣﴾

لم يفكروا فيما قال لهم نوح ﷺ، وما دعاهم إليه..!! بل كَذَّبُوهُ فوراً.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ [المؤمنون: ٢٧].

وصنع نوح ﷺ السفينة، وظل يدعوهم:

﴿حَقِّقْ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٤٠].

وركب نوح ﷺ السفينة، والذين آمنوا معه. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا﴾.

ثم ماذا بعد؟ ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

﴿فَانْظُرْ﴾ أيها المخاطب في كل عصر، وكل مصر ﴿كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُذْرِبِينَ﴾ المكذبين واعتبر بها، ولا تعاند كما عاندوا، ولا تخطئ كما أخطؤوا، ولا تكفر كما كفروا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا

كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧٤)

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد نوح ﷺ ﴿رَسُولًا﴾ آخرين إلى قومهم، يدعوهم إلى التوحيد، وإلى عبادة الله.

﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والدلائل على صدقهم في دعوتهم.

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ بهؤلاء الرسل ولا بدعواتهم، حيث كذبوا ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ﴾ الرسل الذين أرسلوا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾.

و﴿كَذَلِكَ﴾ الطبع والختم على القلوب التي تكذب ﴿نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين للحدود المعهودة في الكفر والعناد، المتجافين عن قبول الحق، وسلوك طريق الرشاد.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ يَتْلِيَانَا فَاستَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (٧٥)

والمعنى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد هؤلاء الرسل ﴿مُوسَى وَهَارُونَ﴾ عليهما السلام ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ لدعوتهم إلى عبادة الله وحده.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن قبول الحق، وإجابة الدعوة، ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ في موقفهم مع موسى، ودعوته وآياته.

ولكن كيف كان ذلك؟ يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٦)

يعني: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ مع موسى وهارون، وهي دعوتهم إلى عبادة الله المؤيَّدة بالدليل، وهي الآيات التسع: العصا، واليد، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، قالوا:

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي جاء به موسى ﴿لِسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وهذه هي عادة أهل الإجمام، يحاربون الدعاة إلى الله، ويسفّهون عقولهم، ويكذبون أقوالهم، ويؤكدون ذلك.

فهل ردّ عليهم موسى ﷺ؟ نعم، وقال لهم:

﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُونَ﴾ (٧٧)

والمعنى: ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ثلاث جمل في منتهى الإيجاز والبلاغة:

الأولى: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ فوراً وبدون تدبر فيه ولا دراسة وتعقل له، ولذلك: فما تقولونه فاسد.

الثانية: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ وما كان ينبغي لكم أن تقولوا ذلك على آيات الله.

الثالثة: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُونَ﴾ وأنا لست بساحر، بل أنا رسول رب العالمين، فالفلاح من نصيبي، والخسران نصيب المكذبين.

فهل فهموا كلامه ﷺ وأمنوا؟ أبداً والله، بل استمروا في عنادهم، حيث:

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لَتُلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٨)

سبحان الله...!! ردوا على موسى ﷺ بجمل ثلاث هربوا بها من نقاشه الجاد، وكلامه الواضح، حيث ﴿قَالُوا﴾:

أولاً: ﴿أَجِئْنَا لَتُلْفِنَا﴾ أي: تصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ من دين كانوا عليه، واتبعناهم فيه...؟

ثانيًا: وتريد يا موسى بدعوتك التي جئت بها أن ﴿تَكُونَ لَكُمْ﴾ أنت وأخوك ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ والعز والسلطان ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وهي أرض مصر، وتنزع منا الحكم فيها، وفي أهلها.

ثالثًا: قرارنا النهائي ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين لدعوتك، ولا متبعين لرسالتك؛ لأنك لا تريد من كل هذا إلا السلطان والملك الذي نحن فيه. وأتبعوا هذا الرد القولي بالرد العملي الآتي:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ (٧٩)

أي: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لحاشيته اجمعوا السحرة من كل أنحاء البلاد و﴿اتُّوْنِي﴾ منهم ﴿بِكُلِّ سِحْرٍ﴾ ماهر بفنون السحر، ﴿عَلِيمٍ﴾ أي: بدقائقه؛ ليهزم موسى ويبطل سحره. وفعلاً قام أتباعه وجمعوا السحرة، فماذا حدث؟

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ (٨٠)

يعني: جاء السحرة، وعلموا الموضوع، واتفقوا مع فرعون قائلين:

﴿إِنَّا لَنَّا لَاجِرٌ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣].

ووعدهم فرعون بكل ما طلبوا، بل قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفْرَقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٤] حينما تغلبون. وبدأت المواجهة بين السحرة وموسى ﷺ.

﴿قَالُوا يَكْفُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥].

وهنا: ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ من سحركم.

وبعد.. ﴿فَلَمَّا أَلْقُوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨١)

لَمَّا قال لهم موسى: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [يونس: ٨٠]؛

﴿قَالُوا جَاهِلْمٌ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

﴿فَلَمَّا أَلْقُوا﴾ بهذا الشكل جبالهم وعصيتهم ﴿قَالَ مُوسَى﴾ لهم: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ﴾ وهو ﴿السِّحْرُ﴾.. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ لأنه فساد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿قَالَ قَتَلْتُمْ مُوسَىٰ﴾ على الفور ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ﴾ آية من عند الله ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾
[الشعراء: ٤٥] وليست سحراً.

وهنا.. ﴿قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْمَالِئِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨].

هكذا: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٨٢﴾

يعني: ويظهر الله الحق بأوامره وأحكامه وفي مواعيده، وعلى أيدي رسله.

حتى ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ في كل العصور وفي كل البيئات ذلك، كما كان
يكرهه فرعون.

ولكن هنا سؤال هام: هل آمن مع هؤلاء السحرة لموسى غيرهم..؟

اقرأ الجواب على ذلك من المولى، حيث يقول عز وجل:

﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن
يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٨٣﴾

سبحان الله.. بالرغم من هذه الآيات البينات التي جاء بها موسى، والتي آمن بسببها
السحرة الماهرين في يوم العيد، وأمام الجموع الحاشدة.

﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ﴾ بالله تعالى مع هؤلاء السحرة الذين آمنوا ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ طائفة
﴿مِّن﴾ شباب ﴿قَوْمِهِ﴾ المصريين المتحمسين.

وكانوا في إيمانهم هذا ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ بسبب بطشه وجبروته وظلمه،
وخوف كذلك من ﴿مَلَئِهِمْ﴾ وأجهزة استخباراتهم، أن يكتشفوا أمرهم، فيؤدي بهم
ذلك أن ﴿يَفْتِنَهُمْ﴾ ويعذبهم، فرعون وزبانيته.

خاصة ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾ تكبر ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ظالم لأهلها ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ
الْمُسْرِفِينَ﴾ في طغيانه، حيث يقول لأهل البلاد: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَتَعْلَمُونَ﴾ [النازعات: ٢٤].

ولهذا.. يقول رب العزة تبارك وتعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ ﴿٨٤﴾

يعني: ﴿وَقَالَكَ مُوسَىٰ﴾ للخائفين من أتباعه الذين آمنوا معه ﴿يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ

ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴿٨٥﴾ وَوَقَّعْتُمْ فِي نَصْرَتِهِ ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ إِذْ بَدُونَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَالاعْتِمَادِ عَلَيْهِ، وَتَفْوِضِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ لَا يَسْتَطِيعُ فَرْدٌ وَلَا جَمَاعَةٌ وَلَا أُمَّةٌ أَنْ تَحَقِّقَ هَدَفًا يَفْرُضُهُ اللَّهُ، أَوْ تَتَخَلَّصَ مِنْ ظَلَمٍ ظَالِمٍ.

أي: عليه توكلوا إِذَا ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾، وفوضوا أمركم إليه. ماذا فعل الذين آمنوا مع موسى حينما أمرهم بذلك؟ يقول تبارك وتعالى:

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٥)
أي: استجابوا لموسى فوراً، وفوضوا أمرهم إلى الله، وتوكلوا عليه، ثم توجهوا لله داعين قائلين:

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تنصرهم علينا، فيكون في ذلك فتنة لهم؛ حيث يظنون بذلك أنهم على الحق، ونحن على الباطل. ثم دعوا دعوة أخرى حيث قالوا:

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٨٦)
يعني: وخلصنا واكتب لنا النجاة ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾ لنا وإحسانك بنا ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ الذين كفروا بالحق، وبغوا على أهلهم، وهكذا سألوا الله العافية والنجاة. وبعد هذا التوجيه - في هذه المحنة القاسية - من موسى لقومه يكون التوجيه الإلهي - للوصول للخلاص النهائي من هذه المحنة - لموسى وأخيه من الله تعالى. حيث يقول تبارك وتعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٧)
نعم، أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه ﷺ، وأرشدتهما إلى الطريق العملي، الذي ينبغي اتباعه في هذه الظروف القهرية الاضطرارية.

وهي ﴿أَنْ تَبَوَّآ﴾ اتخذا ﴿لِقَوْمِكُمَا﴾ المؤمنين ﴿بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ تقيمون فيها حتى يَأْلَفَكُمُ النَّاسُ وتألّفونهم، ويعرفون عن قرب دعوتكم.

﴿وَجَعَلُوا بُيُوتَكُمْ﴾ هذه ﴿قِبْلَةً﴾ للمؤمنين يجتمعون فيها، ويتشاورون في أمورهم، ويدرسون دينهم، ويعبدون فيها ربهم، خاصة وأن العيون ترصدكم، والطاغوت يحول بين لقاءاتكم، ويمنعكم من عبادة ربكم.

﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ﴾ على كل حال وفي أي مكان، وأتموها ولا تنهاونوا في أدائها، واستعينوا بها على ما أنتم فيه.

﴿وَنَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين معك يا موسى بالنصر في الدنيا، والجنة في يوم القيامة.

ويبدو أن موسى ﷺ أدرك مما أوحى إليه أنه والمؤمنون معه مقدمون على مرحلة من الجهاد طويلة، ولذلك استعان على عدوه بالدعاء:

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٨٨)

توجه موسى إلى ربه لما تأكد من عناد فرعون واستمراره في طغيانه، وقال: يا رب لقد ﴿آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾ من أهل الباطل ﴿زِينَةً﴾ بهيجة ﴿وَأَمْوَالًا﴾ كثيرة ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ .. !!

﴿رَبَّنَا﴾ لقد آتيتهم ذلك، فكان وسيلتهم للطغيان والفساد و ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ الحق ودينك القويم، فلا يتبعوه، وما دامت النعمة قد أضلتهم وأطغتهم ولم يؤمنوا!! فاشدد يا رب وطأتك عليهم.

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ أهلكها ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أغلقها برباط قوي متين ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا﴾ بأنفسهم ﴿الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ الذي تنزله عليهم في الدنيا، بسبب كفرهم وطغيانهم.

وأجاب الله موسى ﷺ الذي كان يدعو، وهارون ﷺ الذي كان يؤمن على دعاء أخيه:

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

﴿٨٩﴾

يعني: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾ كما طلبتما ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ على الرسالة والدعوة إلى الله ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ﴾ في استعجال إجابة الدعوة ﴿سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حكمة الله في تأخير تحقيق المطلوب.

وقد تحققت الدعوة كما طلبا، فمسحت - كما قال الرواة - أموالهم وهلك، وربط الله على قلب فرعون فمكث أربعين، فلم يؤمن حتى أدركه الغرق، ورأى العذاب في الدنيا بعيني رأسه، ومع ذلك لم ينفعه إيمانه.

وبيان ذلك في قوله تعالى:

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٩٠﴾

يعني: لما وصل موسى وبنو إسرائيل إلى البحر، وهم في طريقهم للخروج من مصر، تبعهم فرعون وجنوده ﴿بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ أي: ظلماً وعدواناً.

وانفلق البحر، في معجزة إلهية لموسى عليه السلام؛ إنقاذاً له وللمن معه، من فرعون وجنوده، ومراً موسى ومن معه من هذا الفلق في الماء، حتى وصلوا إلى الشط الآخر - على نحو ما سبق ذكره في سورة الأعراف [١٣٨].

وتبعهم فرعون، ودخل البحر بجنوده، وأطبق الله عليهم ماء البحر، حيث انتهت معجزة فلق ماء البحر، وغرقوا فيه.

وهنا، وفي حال الغرق ﴿قَالَ﴾ فرعون لينقذ نفسه ﴿ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ معهم.

ولكن.. جاء هذا بعد فوات الأوان..

﴿ءَاَلَكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٩١﴾

يقول المولى له: ﴿ءَاَلَكُنْ﴾ تؤمن ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ من ﴿قَبْلُ﴾ في زمن

التكليف، فلم تؤمن ﴿وَكُنْتَ﴾ إضافة إلى عدم إيمانك ﴿مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ بضلالك وإضلالك.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِدَنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفُلُونَ﴾ (٩٢)

﴿فَالْيَوْمَ﴾ نميتك و ﴿نُنَجِّكَ بِدَنِكَ﴾ الذي لا روح فيه ﴿لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ﴾ من بعدك من الناس، ولمن يخلقك من الطغاة ﴿آيَةً﴾ وعبرة يعتبرون بها، فلا يفعلون فعلك.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ في كل العصور، وفي كل البيئات ﴿عَنْ آيَاتِنَا﴾ ومعجزاتنا والاعتبار بها، والانتفاع بها ﴿لَغَفُلُونَ﴾.

وبعد أن نَحْيَ الله بني إسرائيل بهذه المعجزة الواضحة، يبين سبحانه بعض نعمه عليهم، فيقول جل شأنه:

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صَدَقِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٩٣)

أي: إنه بعد أن خرج بنو إسرائيل من مصر، ومروا بمراحل عديدة من تاريخهم، ودخلوا إلى الأرض المقدسة، وأسكنهم الله فيها.

يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أنزلنا بني إسرائيل ﴿مَبُوءًا صَدَقِ﴾ أي: منزل كرامة، كرمناهم فيه، وهي الأرض المقدسة. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ بأنواعها العديدة.

وطابت لهم الحياة، وكانوا في أهنأ حال.. ولكنهم لا يحبون الطيبات، ولا يستريحون لهدوء الحال، حيث اختلفوا وسفّه بعضهم بعضاً، وقتل بعضهم بعضاً، وآمن بالتالي بعضهم، وكفر البعض الآخر.

يقول تعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ على هذا النحو ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ الذي ينير الطريق ويزيل اللبس، ويمنع الخلاف. ولذلك ما كان لهم أن يختلفوا.. !!

على أية حال ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي﴾ أي: يفصل ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي كل فريق بما يستحق.

وبعد أن ذكر المولى عز وجل هذا القصص، للنبي ﷺ وللمكذبين من قومه، للتدليل على الوحي.

يخاطب حبيبه مباشرة بهذا الخطاب، حيث يقول عز وجل:

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ
لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٩٤)

نؤكد من البداية أن محمداً ﷺ ليس عنده أدنى شك، ولكن الكلام موجه للمشركين.
أي: أنه على من يشك في الوحي أو في القرآن، أو في نبوة محمد ﷺ أن يسأل أهل
الكتاب ﴿الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ﴾ قبل محمد ﷺ.

ولو سألهم وأجابوا بصدق: لوجد هذا القصص عندهم، ولعرف أن الوحي من الله
صدق، ولعرف أن القرآن من عند الله صدق، ولعرف أن محمداً نبي صدق.
وبدون كل هذا يكفي أن يقول تعالى لحبيبه: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾.
وهذا الحق هو أنك رسول من رب العالمين، وأن أهل الكتاب يعلمون ذلك علم
اليقين.

وما دام الأمر كذلك، فإن الله ينهى نبيه عن أمرين، والمراد بذلك أمته:

النهي الأول: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي: الشاكين المتشككين.
النهي الثاني: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ
الْخَسِرِينَ﴾ (٩٥)

يعني: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ أبداً من بين ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الأنفس أو
الآفاق، أو القرآن، فلم يؤمنوا بها وعاندوا ﴿فَتَكُونُوا مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ بهذا التكذيب
في الدنيا والآخرة.

بعد كل هذا يكون القرار الإلهي التالي:

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٦)
يعني: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ﴾ وجبت ﴿عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بالعذاب ﴿لَا
يُؤْمِنُونَ﴾ مهما فعلت معهم، ومهما جاءتهم الآيات، حيث طبع على قلوبهم.

نعم.. إنهم لا يؤمنون، حتى:

﴿وَلَوْ جَاءَ تَهُم كُفْلٌ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٩٧﴾

لا يؤمنون ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ينزل بهم فيؤمنون، ولكنه إيمان لا ينفعهم. يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عذابنا ﴿قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٩٨﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

هذه سنة الله في عباده المصيرين على الكفر، حتى يروا العذاب، ولم يستثن منها إلا حادثة واحدة في التاريخ، وهي حادثة قوم يونس عليه السلام. يقول المولى عز وجل:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوْسُ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿٩٨﴾

يعني: ليس هناك أهل بلد آمنوا لمَّا رأوا العذاب، فنفعهم إيمانهم هذا ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُوْسُ﴾ فقط ﴿لَمَّا ءَامَنُوا﴾ عندما رأوا العذاب، نفعهم إيمانهم، وقبله الله منهم. يقول سبحانه: ﴿وَكَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ ونَجَّيْنَاهُمْ مِنْهُ ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ﴾ في الحياة وبالحياة ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ انقضاء آجالهم.

وعلى هذا فليسارع مَنْ يريد النجاة من العذاب إلى الإيمان والتوبة إلى الله. ولَمَّا كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان قومه شغوفاً بهذا الأمر، هوَنَ الله تعالى عليه، وبَيَّنَ له أن مرجع ذلك إليه سبحانه، حيث يقول جل جلاله:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩٩﴾

يعني: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد أن يؤمن الناس ﴿لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ بما فيهم أهل مكة، الذين تودُّ أنت إيمانهم، ولكنه لم يشأ ذلك فلم يؤمنوا.

﴿أَفَأَنْتَ﴾ مع ذلك تريد أن ﴿تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ على الإيمان ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

لا يا محمد ليس لك ذلك، ولم تكلف به؛ إنما أنت فقط بشير ونذير، كما أنه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ثم اعلم أنه:

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٠٠)

أي: لا تؤمن نفس إلا بإذن الله، ولا تكفر نفس إلا بإذن الله؛ حيث إن كل شيء بأمر الله، ولا تكون الهداية إلا من الله.

﴿وَيَجْعَلُ﴾ ربنا ﴿الرَّحْمَنُ﴾ أي: العذاب ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولا يفهمون، ولا تشرح صدورهم لآيات الله، ولا يؤمنون بها.

يا محمد: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠١)

يعني: قل لهؤلاء الكفار ﴿أَنْظَرُوا مَاذَا﴾ يوجد ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من آيات الله، الدالة على وحدانيته، وقدرته لعلهم يؤمنون..!!

ولكن ﴿وَمَا تُعْنِي﴾ وتنفع يا محمد هذه ﴿الْآيَاتُ﴾ وتلك ﴿النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ﴾ في علم الله أنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

لا شيء. حيث عميت قلوبهم، وصمت آذانهم، فلم يعودوا يرون الحق، وإذا رأوه لا يحبونه ولا يعترفون به. وإذا كان أمر هؤلاء كذلك لا يعتبرون، ولا تفيدهم الآيات..!!
فماذا يكون..؟ يقول الله تعالى:

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (١٠٢)

أي: ماذا ﴿يَنْظُرُونَ﴾ ويتوقعون بعد تكذيبهم لك، وعدم إيمانهم ﴿إِلَّا﴾ أيًا من العذاب ﴿مِثْلَ آبَائِ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ أي: سبقوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وعذبوا فآمنوا، ولكن بعد أن فات الأوان، ولم ينفع الإيمان..!!

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿فَانْظُرُوا﴾ هذا العذاب الذي تنكرون ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لما يحدث لكم.

وما نتيجة هذا الانتظار...؟ يقول الله تعالى:

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣)
أي: نعذب الذين كفروا بآياتنا ورسلنا، ولم يؤمنوا ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ من هذا العذاب.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإنجاء الذي ننجي به الرسل، ومن آمن بهم كان ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أن ﴿نُنَجِّي﴾ المؤمنين معك يا محمد.

وفي خاتمة السورة خطابان للناس جميعًا، على لسان محمد ﷺ:

في الخطاب الأول: نفي للشك عن دين الله، يقول الله تعالى:

﴿قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٤)
ومعنى الآية: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل الدنيا كلها ﴿يَتَّيِّهَا النَّاسُ﴾ في كل زمان ومكان ﴿إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ وهو الإسلام أنه حق..!!

﴿فَ﴾ اعلّموا أنني ﴿لَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ﴾ أنتم ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ كالأصنام أو البشر أو البقر أو المادّة، أو.. أو.. إلخ.. ﴿وَلَكِن﴾ والحمد لله تعالى ﴿أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ﴾ بقبض أرواحكم.

﴿وَأُمِرْتُ﴾ كذلك عن طريق الوحي ﴿أَن أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ به سبحانه.

﴿وَأَن أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٥)

أي: وأمرت كذلك بقوله: ﴿وَأَن أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾.

يعني: استقم على دين الله غير ملتفت إلى غيره ﴿حَنِيفًا﴾ أي: بعيدًا عن الشرك، وما يؤدي إليه.

وكذلك: نهيت بقوله: ﴿وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ اعتقادًا أو عملًا وسلوكًا أو قولًا.

أيضاً نهيت بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٦)

أي: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ ولا تعبد ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام وغيرها ﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾ إن سألته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن أهملته.

ولذلك: لا تعبد غير الله تعالى ولا تسأل غير الله تعالى ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ شيئاً من ذلك ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾.

فمن الذي يمنعك - أيها الإنسان - من عبادة الله وحده، خاصة إن عرفت ما يلي:

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ يَضُرَّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٧)

يعني: كيف تشك أيها الإنسان في الإسلام، وتعبد من دون الله ما لا ينفَعُكَ ولا يضرُكَ مع أنه ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ﴾ أي: يصيبك ﴿اللَّهُ يَضُرُّ﴾ مرض أو فقر أو أي شدة ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ عنك إذا دعوت ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ﴾ ويخصك ﴿بِخَيْرٍ﴾ من عافية أو غنى أو غير ذلك ﴿فَلَا رَادَّ﴾ فلا مانع ﴿لِفَضْلِهِ﴾ أن ينالك أو تناله.

حيث إنه عز وجل ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ أي: بهذا الخير ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

هذه هي نهاية الخطاب الإلهي العام الأول في خاتمة السورة..

وفي الخطاب الثاني: تأكيد للاهتمام بالقرآن، يقول الله تعالى:

﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٠٨)

ومعنى الآية: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل الدنيا كلها ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ﴾ في كل زمان ومكان ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ﴾ وهو القرآن ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ مع رسول الله ﷺ هادياً للتي هي أقوم في كل شيء ، ولذلك اهتموا بهديه، وانتفعوا بما فيه. ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى﴾ بهديه واختار الحق، واتبعه ﴿فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أي: ثواب اهتدائه يعود عليه، ويتنفع هو به.

﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ عن هدايته واختار الضلال، واتبعه ﴿فَأِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: جزاء ضلاله يعود عليه ويكتوي بأضراره.

وعلى كل حال سواء اهتديتم أو ضللتهم ف ﴿مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ يجبركم على الهدى، أو يلزمكم بالإيمان، إنما أنا نذير وبشير فقط، والهداية من الله. وما دام الأمر كذلك أيها المؤمن، فالتزم أمر الله تعالى، حيث يقول لنبه عليه الصلاة والسلام:

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُوكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٠٩)
أي: ﴿وَاتَّبِعْ﴾ يا محمد ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ من ربك وهو القرآن، وكذلك ﴿اتَّبِعْ﴾ أيها المؤمن ﴿مَا يُوحَىٰ﴾ إلى نبيك ويصل ﴿إِلَيْكَ﴾ من ربك. ﴿وَأَصْبِرْ﴾ على مشاق التبليغ لدين الله والعمل به، والإيذاء في سبيله. ﴿حَتَّىٰ يَخُوكَ اللَّهُ﴾ بينك وبين مخالفيك بالنصر لدين الله، وعلو كلمته ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ بعدله وحكمته ورحمته. وقد اتبع محمد ﷺ وصبر ووفى بما عاهد الله عليه..

فهلاً سار المسلمون على نفس الدرب؛ لعلمهم ينصرون!!
